



جمالية لغة الخطاب الصوفي في الشعر العربي: نماذج مختارة

بريك حمزة و بن وناس مفيدة
جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف

ملخص	معلومات عن المقال
تعد النتاجات الصوفية من أخصب أنماط الكتابة في اللسان العربي وتتوفر على عمق و ثراء قل نظيره في الكتابات العربية، فقد فتحت آفاق قابلة للنص الأدبي لقراءات متوالية ولا نهائية، وعلى الرغم من ذلك فهي الأقل حظا في الدراسات اللغوية والأدبية، ومن هذا المنطلق جاءت مقالتي للتساؤل عن الإشكاليات الآتية: ما مفهوم التصوف؟ وما هي أهم المبادئ الأساسية التي يقوم عليها هذا العلم؟ وما هو الأثر الجمالي للغة الصوفية في النفس الإنسانية؟ وكيف وظفت لخدمة الشعر العربي؟	الكلمات المفتاحية: الخطاب، التصوف، الشعر العربي

المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان، كالطب لحفظ الأبدان،
وكانلحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك".⁶

فالتصوف إذن: "نمط من المجاهدة والرؤية النفسية التي قد يرافقها سلوك عملي جسدي في حين يردا منها أن تستجيب لحاجات - التصوف - الروحية والنفسية والمجتمعية العامة وهو بوصفه نتاجا ذهنيا ننظر إليه على أنه مادة متممة للفلسفة العربية".⁷

وتجدر الإشارة إلى أن الزهد هو أول حركات التصوف في الإسلام، وقد انتشرت حركة الزهد في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم بعده، وبخاصة بعد ثراء المسلمين وحكمهم للعالم القديم المعروف آنذاك وفُرق بين التصوف والزهد، فالتصوف زهد في الدنيا لكسب رضا الله، والزهد بعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة والتصوف دخول في جمال الملأ الأعلى وروحه، والزهد دخول في مجال التقوى خوفا من عذاب الله ونقمته وجبروته والتصوف فلسفة روحية في الإسلام والزهد منهج عمل من مناهج بعض المسلمين وله نظائر في الديانات القديمة.⁸

ويقول ابن خلدون صاحب كتاب المقدمة عن التصوف: "لقد انفراد خواص السنة المحافظون على أعمال القلوب المقتدون بالسلف الصالح في أعمالهم الباطنة والظاهرة وسموها بالصوفية".⁹

ونقل العطار عن جنيد أنه قال: "الصوفي هو الذي سلم قلبه كقلب إبراهيم من حب الدنيا وصار بمنزلة الحامل لأوامر الله، وتسليمه تسليم اسماعيل وحزنه حزن داود، وفقره فقر عيسى، وصبره صبر أيوب، وشوقه شوق موسى وقت المناجاة، وإخلاصه إخلاص محمد".¹⁰

أما علماء الأخلاق والتهديب الروحي يقولون: إن حقيقة التصوف الكاملة الفاضلة هي مرتبة "الاحسان" التي يفسرها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور بقوله: >> الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تره فإنه براك << ومعنى هذا أن التصوف الصادق هو الذي يقوم على إخلاص العبادة لله تعالى بلا تصنع ولا تكلف ودون رياء أو نفاق وأن يكون الانسان مسلما حقا، وأن يكون مؤمنا صدقا ويحسن الجمع بين اسلامه وإيمانه.¹¹

أولا : مفهوم التصوف

أ: أصل التصوف واشتقاقه:

لقد تعددت أصول التصوف نظرا لتشعب منحى هذا الفكر وميوله، فهذا الاسم الذي أطلق عليه اختلف في أصله وفي مصدر اشتقاقه، فالتصوف "مصدر للفعل الخماسي المصوغ من - صوف - للدلالة على لبس الصوف، ومن ثم كان المتجذر لحياة الصوفية يسمى في الاسلام صوفيا".¹

فلقد نقل الطوسي أبو نصر السراج في كتابه الذي يعد أقدم مرجع صوفي أنه قال "كان في الأصل صفوى، فاستقل ذلك، فقيل صَوَّى - ويمثل ذلك نقلا عن أبي الحسن الكنّاد: هو مأخوذ من الصفاء" وينقل الكلاباذي أبو بكر محمد الصوفي المشهور عن الصوفية أقوالا عديدة في أصل هذه الكلمة واشتقاقها فقال: "قالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها، ونقاء أثارها".²

وقال قوم: "إنما سموا الصوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همومهم إليه، وإقبالهم عليه، ووقوفهم بسائر همهم إليه صلى الله عليه وسلم"،³ وورد لفظ - الصوفي - لقبا مفردا لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثامن ميلادي إذ نعت به جابر ابن حيان، وهو صاحب كيمياء شيعي من أهل الكوفة له في الزهد مذهب خاص، وأبو هاشم الكوفي المتصوف المشهور،⁴ وأرجح الأقوال وأقربها إلى العقل مذهب القائلين بأن الصوفي نسبة إلى الصوف، وأن التصوف مأخوذ منه أيضا، فيقال: تصوف إذا لبس الصوف.⁵

فهذه التسميات كلها توحى إلى الصفاء و النقاء والتحلي بالأخلاق الحميدة والزهد في الحياة الدنيوية والوقوف على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصدق التوجه إلى الله بما يرضاه من حيث يرضاه.

ب : مفهوم التصوف:

يقول الشيخ أحمد زروق رحمه الله: "التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام، والأصول علم التوحيد لتحقيق

ويورد الدكتور أحمد علوش في حديثه عن نشأة علم التصوف فيقول: " قد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة إلى التصوف في صدر الإسلام وعدم ظهوره، هذه الدعوة إلا في عهد الصحابة والتابعين، والجواب على هذا: أنه لم تكن الحاجة إليها في العصر الأول، لأن أهل هذه العصور كانوا تقوى وورع وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا يتبارون ويتسابقون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى تلقينهم علما يرشدهم إلى أمرهم قائمون به فعلا.¹⁷ وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل " العربي القح، يعرف اللغة العربية بالتوارث كابرا عن كابر حتى أنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيئا من قواعد الإعراب والنظم فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغة ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن وضعف التعبير، ولم يرد من الأجانب أن يتفهموا ويتعرفوا عليها، أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألقت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة".¹⁸

وهناك من يرى أن واقع منشأ النزوع إلى التصوف هو ثورة الضمير على ما يصيب الناس من مظالم لا تقتصر على ما يصدر عن الآخرين وإنما تنصب أولا وقبل كل شيء عن ظلم الإنسان لنفسه، وتقترب هذه الثورة برغبة في الكشف عن الله بأي وسيلة يقويها تصفية القلب من كل شاغل، وهذا الذي نلمسه في سيرة الحسن البصري وفي غيره، ووعظاته قد تجلى في السيرتين الرائعتين اللتين كتبتهما المتصوفان الكبيران المحاسبي (الوصايا) والغزالي (المنقذ الضلال) يترجمان فيه نفسيهما.¹⁹ وذلك لم يكن قد هدد بعض النظام القائم بالغاما بلغ جور الحاكم، ولكن الفقهاء والمتكلمين أسخطهم أن يروا أناسا يتحدثون عن الضمير ويحتكمون إلى قضاائه الباطن، في حين أن شريعة القراءان تحاسب على الأعمال الظاهرة وتعاقب الناس على آثامهم ولا حيلة لها مع النفاق في الدين، ولذلك حاولوا أن يبينوا أن حياة الصوفية لا محالة ستفضي بهم إلى الزيغ لأنهم يقولون أن النية مقدمة على العمل وأن السنة خير من الفرض وأن الطاعة خير من العبادة.²⁰

فجاء الاسلام فهذب هذه التعاليم ونقحها، وحذف منها الغلو والتطرف ومنع الناس من التشدد في الدين وتعذيب النفس، وعرفهم الحنيفة السمحة البيضاء النزيهة عن الانغماس في الدنيا والجري وراء ملذاتها وشهواتها، كما رعى جانب الطبيعة والفطرة وأبأ الطيبات من الرزق الحلال من المال، والتمتع بالجائز من الدنيا، فوضع عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وأمرهم بالقصد والاعتدال بين التجرد المحض والتزهد الصوفي وبين الإسراف المطلق والتقتير الفاحش،²¹ فقال جلي وعلى في كتابه الذي أنزل على سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه: << يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون >>.²²

من هذه النصوص والمفاهيم السابقة يتبين لنا أن منشأ التصوف ليس أمرا مستحدثا جديدا ولكنه مأخوذ من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه الكرام، كما أنه ليس مأخوذ من أصول لا تمت بالإسلام كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعوا أسماء مبتكرة.

إذن فالتصوف " فلسفة حياة تهدف إلى الترقى بالنفس الانسانية أخلاقا وتحقق بواسطة رياضيات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى والعرقان بها ذوقا لا عقلا، وغمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية لأنها وجدانية الطابع وذاتية".¹²

فهذه تعريفات الصوفية والتصوف في مجملها تبدوا متضاربة فيما بينها لدى أعلام الصوفية وتتعارض في أقوالهم لا جمع بينها ولا وفاق إلا من ناحية واحدة فهي تنبئ صراحة عن حقيقة ادعاء علاقة التصوف بالإسلام، وكونه روحه وعصامته.

نشأة الخطاب الصوفي وتطوره:

إن أمر الخطاب الصوفي كله مختلف فيه، فكما اختلف الناس في أصله واشتقاقه، وحده وتعريفه، بدئه وظهوره، وفي أول من تسمى به وتلقب به، كذلك اختلف في منبعه ومأخذه ومصدره ومرجعه، فتشعبت الآراء وتنوعت الأقوال وتعددت الأفكار.

لقد أحسن العلامة ابن خلدون في تصوير دائرة التصوف الاسلامي حيث قال: " إن طريق المتصوفة منحصرة في طريقين: الأول: وهي طريقة السنة، طريقة سلفهم الجارية على الكتاب والسنة والاقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين والطريقة الثانية: وهي مشوبة بالبدع، وهي طريقة قوم من المتأخرين يجعلون الطريقة الأولى وسيلة إلى كشف حجاب الحس لأنها من نتائجها"¹³

فقد قيل: " أنه اسلامي بحث في أشكاله وصوره، ومبادئه ومناهجه، وأصوله وقواعده وأغراضه ومقاصده حتى في ألفاظه وعباراته وفلسفته وتعليميه ومصطلحاته ومدلولاته وهذا هو ادعاء الصوفية ومن ناصرهم ودافع عنهم " وقال قوم: " لا علاقة له بالإسلام إطلاقا، لا قريبة ولا بعيدة في اليوم الذي نشأ فيه ولا بعد ما تطور، وهو أجنبي كاسمه، فلذلك لا يفتش عن مصادره ومآخذه من القرآن والسنة وإرشاداتها، بل يبحث عنها في الفكر الأجنبي "، وهو رأي أكثر السلفيين ومن نهج منهجهم وسلك مسلكتهم، وكذلك الفقهاء و المتكلمين من أهل السنة من المتقدمين، والأكثرية الساحقة من المستشرقين، وكالكثير من الباحثين والمفكرين المتحررين من الجمود وعصبية التقليد من المتأخرين.¹⁴

وقالت طائفة: إنه اسم للزهد المتطور بعد القرون المشهودة لها بالخير كرد فعل لزخرفة المدنية وزينتها التي انفتحت أبوابها على المسلمين بعد الغزوات والفتوحات وانغماسهم في ترف الدنيا ونعيمها، ثم حصلت فيه التطورات، ودخلت أفكار أجنبية والفلسفات الغير إسلامية وذهب إلى هذا الرأي ابن تيمية والشوكاني من السلفيين وغيرهم من بعض أعلام أهل السنة، حتى الصوفية أنفسهم وبعض المستشرقين.¹⁵

وقال الآخرون: إن التصوف وليد الأفكار المختلطة من الإسلام واليهودية والمسيحية ومن المانوية والمجوسية والمزدكية، وكذلك الهندوكية والبوذية وقبل كل ذلك من الفلسفة اليونانية وأراء الأفلاطونية الحديثة، وتمسك بهذا الرأي بعض الكتاب في الصوفية من المسلمين وغير المسلمين.¹⁶

فالتصوف بهذه المعاني تصور ديني نشأ بانتشار النزعة الفردية الروحية ومع مرور الزمن أصبح يدعو إلى العبادة والزهد في الحياة وذلك كرد فعل على ظهور الفساد والترف الحضاري وصار طريقا من الطرق المنظمة التي تعرف بالصوفية.

القواعد والمبادئ الأساسية التي يركز عليها الخطاب الصوفي :

يبنى التصوف على خمس قواعد: وتلك القواعد تتماشى لتعاليم الدين مسيرة للشرعية من حيث أحكامها الباطنة ونواميسها الخفية وتلك القواعد هي:

- 1- صفاء النفس ومحاسبتها.
- 2- قصد وجه الله.
- 3- التمسك بالفقر والافتقار.
- 4- توطين القلب على الرحمة والمحبة.
- 5- التجميل بمكارم الأخلاق التي بعث الله بها النبي صلى الله عليه وسلم لتمامها.²³

فالقاعدة الأولى: معناها أن كل من أراد أن يدخل في سلك المقربين يعّدّ الجواب لسؤال الحق تعالى والقاعدة الثانية: معناها أن التصوف لا بد أن يقصد وجه ربه في جميع الأحوال والقاعدة الثالثة: معناها الزهد في الدنيا والقناعة في متاعها حرمانا للنفس والقاعدة الرابعة: معناها أن يجب على كل صوفي أن يلتزم قلبه محبة المسلمين ورحمتهم ويعطيهم حق الإسلام من التعظيم والتوقير، والقاعدة الخامسة: هي زبدة الدين وحقيقة أخلاق الصوفيين ومعناها أن يكون العبد هينا لنا مع أهل بيته وعشيرته وجميع المسلمين.²⁴

وفي قواعد التصوف لأبي عباس أحمد زروق، وهو من متصوفة القرن الرابع للهجري يوضح المنهج المعتدل للمتصوفة المؤسس على فهم دقيق للقرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، بل وتقدير أهل العلوم الفقهية والالتزام بأحكامهم في أمور الشريعة والعبادة، إذ يؤسس التصوف على جملة من القواعد تؤكد هذا المنحى، فلا يختص التصوف بفقر أو غنى إذا كان صاحبه يريد وجه الله ومع سلامة القلب واستقامة القصد لا بد من القيام بأمور الشريعة إذ لا بد للعارف من العبادة، وإلا فلا عبرة وعلى ذلك وجب الإمام بالشريعة وعلم الأصول والفقه، فالفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله تعالى وحقوقه وعلى الصوفي أن يأخذ نفسه بالتعليم والطلب قبل كل شيء فلا علم بتعليم إلا عن الشارع، أو من ناب منابه في ما أتى بعده، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: << إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم >>.²⁵ فمجمع القواعد التي يركز عليها الخطاب الصوفي تقودنا إلى التربية بالإصلاح والإفادة بالهمة والحال وهذا لا يكون إلا بإتباع الكتاب والسنة من دون زيادة أو نقصان وذلك جار في معاملة الحق والنفس وجميع الخلق.

القيم الجمالية في لغة الخطاب الصوفي في الشعر العربي:

لقد كان لظهور الشعر الصوفي في أدبنا العربي معاصرا لظهور التصوف فقد عبر أوائل التصوف عن أنفسهم وطرقهم وحبهم الإلهي شعرا كما لو كانوا قد اختاروا هذا الفن الأدبي الرفيع حتى يكون وسيلتهم في نشر التصوف وأصوله، ومنذ فجر التصوف وحتى اليوم يتخذ الصوفية من الشعر قالباً للتعبير عن المحبة التي تعني عندهم طريق الوصول إلى الله تعالى.

حيث يتخذ الشاعر من الحب الصوفي موضوعا يدور حوله وهو حب الذات الإلهي، وفيه يصف الحب ولدته، وما يجده من لوعة أو قرب ووصال، وكذلك ما يمر به من تصوف من مقامات وأحوال، ومجاهدة مستمرة للنفس وما يشعر له من فيض رباني، وإلهام قلبي، وسمو روحي وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب الصوفي الإلهي الذي نراه ينقسم

إلى شقين: شق يتعلق بحب الله للعبد، وشق يتعلق بحب العبد لله وكلاهما أفاض فيه الشعراء الصوفيون.²⁶

فالشعر هو الذي يتيح لنا العلاقة الأكثر جمالا وغنى وإنسانية مع الآخر ذلك أنه الأكثر قدرة على كشف الذات لذاتها، والذات في حاجة في حاجة إلى هذا العبد، لكي لا تتماثل وتتماهى وحسب، وإنما لكي تتفرد أيضا - في الوقت ذاته الغريبة هي التي توضح الذات وتتألف معها والشعر يتيح لقاء المفردات معيدا خلقنا باستمرار في وحدة إنسانية كونية إنه يدخل في حالة من النوم اليقظ، وفي هذا النوم الذي هو الصحو الأكمل يعمل البشر بأخوة لصيرورة العالم.²⁷

فالشعر الصوفي كان تطورا للشعر الديني الإسلامي، وتطور للغزل العذري المتصوف الهائم في مصارع الجمال الروحي، وكان قسم منه تطورا لشعر الخمرات في الأدب العربي وقسم آخر هو الخاص وهو وصف الذات الإلهية، فكان تطورا لفن الوصف في أدبنا القديم وشعر المدائح النبوية كان تطورا لفن المدح في الشعر العربي، فالشعر الصوفي كثير وغزير النثر الصوفي وشعراء الصوفية كثيرون في كل عصر ومنهم شعراء قالوا فأفاضوا واعتمدوا على الارتجال والبديهة فأحسنوا، وأتوا في شعرهم بغر المعاني وروائع الخيال وبدائع الصور، وجميل التشبيهات ولطيف المجازات.²⁸

فالشعر الصوفي يتميز بأسلوب يدخل الطمأنينة إلى القلب لسعيه في تطهير الروح والنفس الانسانية، فالحب الإلهي والرمز واللغة والخيال يستحوذان على روح الشاعر الذي يحمل ثورة في طياته كالمجاهدة بالنفس والإلهام القلبي والفيض في الحب الرباني.

وإذا كانت الحركة الصوفية تمثل نوعا من الثورة، وتطرح الجديد في الفكر الديني والسياسي تبعا، فهي في إطار اللغة ليست مجرد تجربة نظر وذوق، وإنما هي تجربة في الكتابة، ومن ثم فهي تمثل حركة إبداعية وسعت حدود الشعر ودخلت به مدارات رحبة من الإيماءات والإشارات ووجود الدلالة والتأويل، وقد يكون بعض المتصوفة قصودا ذلك واعتمدوه لأسباب عديدة ليس أقلها ما تقدم ذكره في غير هذا الموضوع من كلفة باهظة قد تترتب على بعض مقولاتهم ومواقفهم لكنهم في الغالب الأعم، يرجع إلى طبيعة التجربة الصوفية التي يراود التعبير عنها وتصويرها، فهي تمثل حالات وجدانية خالصة يصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة وليست شيئا مشتركا بين الناس جميعا، فالتصوف خبرة ذاتية وأصحابهم يعتمدون في وصف أحوالهم على الاستيطان الذاتي أساسا.²⁹

هذا الاستيطان وما يسفر عنه هو: " وحده ما يمثل تجربة الكتابة الإبداعية عند المتصوفة وإن كانت محكمة طبعا بأساليب اللغة ومكوناتها ولكنهم غالبا ما ينتهكون حدود اللغة ويتجاوزون قوانينها، تماشيا مع نتائج الاستيطان الذاتي وإشراقاته، ولعل بعضهم وقف مبهوتا أمام جدر اللغة عندما لم يفز بما يساعده على التعبير، ويمكّنه من البوح والإفضاء في بعض تجاربه ".³⁰

وبهذا الفهم يكون التعامل مع النص الصوفي في حالة وجدانية إضافية إلى حالات الإبداع الصوفي يحتم إدراكا مؤداه أن اللغة الصوفية لغة إشارية بالمقام الأول، تخضع لقوانينها الداخلية وتحولاتها الخاصة فلا يمثل فيها أي فهم لها إلا وجهها واحدا محتملا من وجوه عديدة يمكن أن تكون مقصودة، ويحتملها التركيب والسياق النصي، وإذا كان الفهم يصدق على الصوفي بعمامة، فهو في النصوص الشعرية الصوفية ألزم

سوى الله فلو قلت له من أين؟ وأين تريد؟ لم يكن له جواب غير " الله " فيقول البسطامي ":

فنيّت عني ودُمّت أنت
سألت عني فقلت أنت
فحيثما درت كنت أنت

بل يبدو غالبا مضمرا وضبابيا على القارئ، والقول بأن اللغة الصوفية غامضة فهذا يعني بأنها تنصرف إلى التشفير والترميز الذي يشكل جزءا من طبيعتها لأنه إن كان الشاعر يستخدم الرمز ليجسد تقنية من تقنيات الفعل الجمالي والبعد الدلالي على القصيدة ويدخل القارئ في حركة من المفارقات والتخمينات التي تؤرق وعيه وتدعوه للتفتيش عن حقيقة المعنى فإن الرمز عند الصوفي لا يمثل غاية جمال فحسب بل هو حقيقة ملموسة ولازمة تمنح اللغة الموصوفة وجودها وكيونيتها الدائمة.³⁴

ففي قصيدة بعنوان " الدليل الطيب " يقول ابن عربي :

نفسي الفداء لبيّض خرد عرب لعين بي عند لثم الركن والحجر
ما تستدل إذا ما تحت خلفهم إلا بريهم من طيب الأثر
ولا دجا بين ليل ما به قمر إلا ذكرتهم، فسرت في القمر
وإنما حين أمسي في ركا بهم فالليل عندي مثل الشمس في البكر
غازلت، من غزلي، منهن واحدة حسناء ليس لها أخت كم بشر
إن أسفرت من محياها أرتك سنا مثل الغزالة إشراقا بلا غير
للشمس غرتها، لليل طرتها شمس وليل معا من أعجب
الصور
فنحن بالليل، في ضوء النهار بها ونحن في الظهر في ليل من
الشعر³⁵

وجده وانفعالاته المتقلبة فظهرت في مجازات عديدة من استعارات وكنائيات، أراد بهذه الأخيرة الإفضاء عن أمور تدور في خاطره وأخيرا يصل إلى الخيال الذي يتم الكشف عنه من خلال الصورة الشعرية الفنية.³⁶ فالصوفي يذهب بخياله إلى أبعد مما نتصور، ليخلق لنا صورا فنية رائعة لكنها غامضة غموض النفس التي غاص فيها، والخيال الذي خلق فيه فالشاعر الصوفي يتخيل أنه وصل إلى السماء، وبلغ الذات الإلهية فهو يصف لنا أمورا بعيدة جدا عن العالم الواقعي ليتجاوز بخياله إلى عالم آخر لا واقعي أو الميثافيزيقي فكل هذه القيم التعبيرية التي تجعل من الصوفي الحديث ينقّس عن ذاته المفعمة بالوجد المتعالي، لن تحدث ولن تخرج إلى أرض الواقع ، إلا عن طريق اللغة فاللغة الصوفية لا يتسنى لها أن تقرأ قراءة سطحية، لأنها تتسم في طبيعتها إذ أن الصوفي يحملها أكبر من طاقته في التعبير عن وجده وباطنه.³⁷

فالتجربة الصوفية في إطار اللغة العربية ليست مجرد تجربة في النظر وإنما هي تجربة في الكتابة ونظرة أفصح عنها الصوفي بالشعر، وبلغت البحث النظري بالشرح ، فاللغة الصوفية هي لغة شعرية، تتمثل في أن كل شيء فيها يبدو رمزا وكل شيء هو ذاته وشيء آخر، فالجيبية مثلا هي الوردية أو الخمرة أو الماء، أو الله إنه صورة الكون وتجلياته والأشياء

وبالمراعاة أولى، لأن التجربة الصوفية الشعرية تمثل خلاصة تلك التجربة الإبداعية اعتمادا على ظاهرها وأقصى درجات كثافتها.³⁰

لكن حينما يركز المتصوف في " الاستهلاك بالكلية في الله وحيث يختفي نهائيا شعور العبد بذاته ويفنى في المشاهد فينسى نفسه وما أشار سري إليك حتى محوت اسمي ورسمت جسمي فأنت تسلو خيال عيني

فحيثما درت كنت أنت³¹

وبذلك يكون المفهوم الأساسي للغة الصوفية في طبيعتها وجودية تتسع ولا تضيق وتنتفتح على رؤى متعددة وتنتقل من الجانب السطحي إلى الجانب الباطني بطريقة حسية للتعبير عما يتجاوز العقل والوجدان بطريقة جمالية.

يبدو الأمر أكثر أهمية، ذلك أننا لا نتحدث عن لغة تمتاز بشعرية تظهر بخصوصية القول الجمالي فحسب وتؤسس لبنية تذبذب المألوف والمعتاد لترسم شبكة من العلاقات المتداخلة والمتشابكة والمتقابلة والمتعارضة لتقترب من المفارقة التي تؤسس لخطاب جمالي قائم على التشكيل في إطار طرائق التعبير المماثلة والمفارقة، وتصبح هذه الشعرية عنصرا فعالا يمنح النص لذة منفردة تجعل القارئ يستشعر متعة القراءة ووهج الكتابة، وإنما حديثنا هنا عن اللغة التي تؤكد صلتها بالنص الصوفي الذي يخوض الشاعر فيه مغامرة الكتابة وفعل الارتطام بشرك اللغة، فيمزق الكثير من خيوط قداستها ونسيجها الجليل بفعل هذا الاندفاع الأهوج الذي لا يابه بما فيه من عراقة أو مهابة أو نقاء.³² هذه التجربة بوصفها رموزا وإشارات وتلويحات، فهنا يقول أكثر ما يقوله ظاهر كلماته وتتقاطع فيه أبعاد ودلالات تجسدها لغة تفرض التواصل معها ذوقا، أو حدسا، فهذه اللغة لا تحمل أصرار المتخيل وحده وإنما تحمل إصرار الذات.³³

فاللغة الصوفية تتفرد بجملة من الخصائص والمقومات التي تحدد كيانها وتميزها عن غيرها وربما كانت هذه أبرز هذه الخصائص هي نزوعها إلى غموض الرؤية أو المعنى الذي لا ينكشف على شيء واضح فالقصيدة في هذه الحالة أشارت إلى الناحية الزمنية التي لا يجوز فيه اللعب والمقام الذي لا يستقيم معه غير العبادة (عند لثم الركن والحجر) فالزمان كما المكان مخصص للعبادة ولا يتصور من قاصد غيرها، كذلك الشاعر يقدم خصائص البيض حين يجعل ليلة البهيم تتحول إلى ليل مقمر جميل، وذلك للتركيز على القيمة الروحية للعبادة، كذلك لا بد للإشارة إلى مجموعة من البنيات المتعددة في التقعيد لهذه البنية الصوفية، والانتقال الدلالي الرمزي السلس من البنية السطحية للبنية العميقة، وذلك انطلاقا من السمات اللغوية التي تغوص في أعماق اللغة الجمالية الصوفية وكشف مكنوناتها المتمركزة في جميع أنحاء النص وهذا ما يمثل في البيت الأخير:

فنحن بالليل، في ضوء النهار بها ونحن في الظهر في ليل من الشعر
لذا فاللغة الصوفية في الشعر العربي الحديث هي لغة تجعل من الرمز والايحاء وسيلتين أساسيتين في الكشف عن ذاتية الشاعر، فالألفاظ الرمزية التي يستعملها الشاعر الصوفي الحديث، والتي يخفى وراءها دلالات عديدة ربما لن تحمل أبدا المعنى الحقيقي المتعارف عليه في اللغة واميس لتلك اللفظة المستعملة فنجد أمثلة كثيرة كالصورة الفنية التي تحمل في طبيعتها رموزا وخفايا كثيرة، فاستعان بها الصوفي للتعبير عن

- منشأ التصوف ليس أمرا مستحدثا جديدا ولكنه مأخوذ من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه الكرام.

- الخطاب الصوفي يقودنا إلى التربية بالإصلاح والإفادة بالهمة والحال وهذا لا يكون إلا بإتباع الكتاب والسنة من دون زيادة أو نقصان وذلك جار في معاملة الحق والنفوس والخلق.

- يتخذ الشاعر من الحب الصوفي موضوعا يدور حوله وهو حب الذات الإلهي ، وفيه يصف الحب ولذته وحسه الوجداني.

- اللغة الصوفية تتفرد بجملة من الخصائص والمقومات التي تحدد كيانها وتميزها عن غيرها، وربما كانت هذه أبرز هذه الخصائص هي نزوعها إلى غموض الرؤية أو المعنى.

- تتقاطع اللغة الجمالية الصوفية في أبعاد ودلالات تجسدها لغة تفرض التواصل معها ذوقا، أو حدسا فهذه اللغة لا تحمل أصرار المتخيل وحده، وإنما تحمل أصرار الذات أيضا.

- جمالية اللغة الشعرية الصوفية تحيلنا على حميمية الوجود وعلى التعرف الشامل بمقام الإنسان بين سائر الموجودات باعتباره مرآة عكست خلاصة معاني الجمال الروحي والوجداني

في الرؤيا الصوفية متماهية ومتباينة ومؤتلفة ومختلفة، فبواسطة اللغة الصوفية ومصطلحاتها وعباراتها وإشاراتنا ورموزها صنع الصوفي عالما داخل عالم يحى فيه الصوفي وعندما يفنى تتنوع فيه الأفكار والكشوفات وتفنى فيه حواضر وتلتهب فيه عوالم جديدة.³⁸

فبهذه المعاني يمكن التعامل مع النص الشعري من الناحية اللغوية التي تؤدي إلى إفشاء الإبداع في الحالة الوجدانية والروحية في لغة الخطاب الصوفي، باعتبار أن اللغة إشارية في المقام الأول تخضع لقوانينها الداخلية وتحولاتها الخاصة.

خاتمة :

من خلال دراستنا توصلنا إلى النتائج الآتية :

- الصوفية والتصوف في مجملها تبدوا متضاربة فيما بينها لدى أعلام الصوفية وتتعارض في أقوالهم لا جمع بينها ولا وفاق إلا من ناحية واحدة.

- أن تكون صوفيا معناه أن تصير إنسانا يسعى في حياته بين الذكر والفكر امتلا وجدانه حبا وفاض رحمة وجبالا.

- 18 - المرجع نفسه، ص 22.
- 19 - ماصينيون، مصطفى عبد الرزاق، التصوف، ص 32.
- 20 - المرجع نفسه، ص 33.
- 21 - إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، ص 70.
- 22 - سورة الأعراف، الآية 31، ص 32.
- 23 - محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص 15.
- 24 - المرجع نفسه ص 15، 16.
- 25 - محمد علي كندي، في لغة القصيدة الشعرية. دار الكتاب الجدد المتحدة، توزيع دار أوبا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، ط1، 2010، ص 60.
- 26 - مجدي كامل، أحلى قصائد الصوفية، ص 8.
- 27 - أدونيس، الصوفية والسريالية، دار الساقى للنشر، ط3، (د ت)، ص 192.
- 28 - محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص 167.
- 29 - محمد علي كندي، في لغة القصيدة، ص 83.
- 30 - المرجع نفسه، ص 83.
- 31 - عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتصورها، ص 197.
- 32 - منى جميات، اللغة في الخطاب الصوفي من غموض المعنى إلى تعددية التأويل. مجلة حوليات التراث جامعة تيارت - الجزائر العدد 15، 2015، ص 52 - 53.
- 33 - أدونيس، الصوفية والسريالية، ص 185.
- 34 - المرجع نفسه، ص 53.
- 35 - محمد علي كندي، في لغة القصيدة، ص 151.
- 36 - حفيظة سليمان، المنحى الصوفي في الشعر العربي الحديث. رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2015، ص 163 - 164.
- 37 - المرجع نفسه، ص 164.
- 38 - محمد زياتي، فلسفة اللامعقول في الخطاب الصوفي (ابن عربي أمهوجا). إصدارات إي - كتب لندن ط1، 2017، ص 73-74.

- 1- ماصينيون، مصطفى عبد الرزاق، التصوف . تر: دائرة المعارف الاسلامية، دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة، ط1، 1984، ص 25.
- 2 - إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر. إدارة ترجمان السنة للنشر، ط1، 1406 هـ - 1986 ص 20، 21.
- 3 - المرجع نفسه، ص 21.
- 4 - ماصينيون، مصطفى عبد الرزاق، التصوف، ص 26.
- 5 - إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، ص 35.
- 6 - عبد القادر عيسى رحمه الله ، حقائق عن التصوف. منشورات دار عرفان سوريا - حلب 1994، ط 16، ص 17.
- 7 - طيب، التصوف العربي الإسلامي فرادة في الحضور الوجودي والاستحقاق القيمي. منشورات الهيئة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة دمشق، (د ط)، 2011، ص 5.
- 8 - محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي. دار غريب شارع نوبال القاهرة، (د ط)، (د ت) ص 7.
- 9 - ابن خلدون عبد الرحمان، شفاء السائل لتهذيب المسائل. الدار العربية للكتاب تونس، (د ط) 2006 ص 178.
- 10 - إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر. ص 29.
- 11 - مجدي كامل، أحلى قصائد الصوفية. دار الكتاب العربي، سورية، دمشق - الحجاز عربية للطباعة والنشر، ط 1، 1417 هـ - 1997 ص، 5- 6.
- 12 - أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الاسلامي. دار الثقافة للنشر والتوزيع، شارع سيف الدين المهراي، القفالة - القاهرة، ط3، 1979، ص 8.
- 13 - عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتصورها. دار الجيل بيروت ، ط1، 1413هـ 1993 ص 20، 21.
- 14 - إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر. ص 49.
- 15 - المرجع نفسه، ص 49.
- 16 - المرجع نفسه، ص 49.
- 17 - عبد القادر عيسى رحمه الله، حقائق عن التصوف، ص 22.